بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

العلاقة بين الملك المعزّ عزّ الدين أيبك وشجر الدر: تفسير جديد

د. تركي بن فهد آل سعود

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

1- مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فيواجه دارس نشأة الدولة المملوكية، إثر مقتل آخر السلاطين الأيوبيين الذين حكموا فعليًّا في مصر، الملك المعظّم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت 648هـ/1250م)، كثيرًا من المعلومات المتداخلة والمتضاربة والقضايا الغامضة. فكان الداعيَ لهذا البحث، ولبحوث سبقته، قراءةُ المصادر والتركيزُ على تقييمها، وقراءةُ ما بين السطور إن غاب التصريح؛ لأن معظمها كُتب في عصر دولة المماليك بعد أن استقرّ الحكم وحُسِم صراع الأجنحة بينهم، وأصبحت هذه الدولة مقرًا للخلافة العباسية بعد سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م.

ومن أبرز تلك القضايا الغامضة علاقة شجر الدر بالملك المعزّ أيبك، ابتداءً من أتابكيته[1] في فترة ولايتها القصيرة وفترة الملك الأشرف الأيوبي[2]، ثم انفراده بالسلطنة، ثم زواجه منها، وأخيرًا مقتله بأمرها وتدبيرها.

---

[1] الأتابك: لفظ تركي مركَّب، أصبح موازيًا لكبير الأمراء. راجع: أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ/1418م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د. ت، ج4، ص18.

[2] الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن يوسف بن الملك الناصر يوسف بن المسعود أقسيس، لم أهتدِ إلى تاريخ وفاته. كان جدُّه الملك المسعود ملكًا على اليمن، ثم رحل إلى مكة وتوفي بها، فاستقدم الملك الكامل ابنه يوسف، والد الأشرف إلى مصر، وكان يُعِدُّه لحكم اليمن. لكنه توفي في أيام الملك الصالح وخلّف ولدًا صغيرًا هو الملك الأشرف موسى، فكان عند عمّاته القطبيات بنات الملك العادل إلى أن أقامه البحرية سلطانًا على مصر سنة 648هـ/1250م، وهو ابن عشر سنين. وظلّ على ذلك إلى أن عزله الملك المعز أيبك سنة 652هـ/ 1254م، وأعاده إلى عماته القطبيات. انظر: محمد بن سالم ابن واصل (ت 697هـ/1298م)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق:

2- منهج البحث:

وأود أن أوضح هنا أن هذا البحث يرتكز على المصادر المعاصرة للأحداث، ولن يستقيَ المعلومات من كتابات المؤرخين المتأخرين الذين لم يذكروا مصادرهم، إذ إن تلك المعلومات مجهولة المصدر، ولا يُمكن للباحث تقييم المجاهيل والحكم على رواياتهم. لذلك إن انفرد مؤرخ متأخر برواية ولم يسندها إلى مصدر، فقد يستفاد منها في هذا البحث بأنها رواية شائعة -رسمية- للسلطة المملوكية كُتِبَت ورُوّجت في عصرها، وقد يستأنس بها باعتبارها تفسيرًا للحدث له شواهد، سبق أن طُرح من مؤرخ متقدّم بما يوافق تفسير هذا البحث، وهذا من باب حفظ الحقّ الأدبي. أما إن وافقت الرواية التي يوردها المؤرخ المتأخر رواية المصادر فيُحال إليها استئناسًا وتقوية لرواية المصدر الأصل. وهذا الحرص في تقييم الروايات واجب خاصة في ظروف نشأة دولة جديدة، وتشابك المصالح وتعقُّدها، وصراع حُسم لطرف دون الآخر، وقد كُتبت هذه الروايات في وقت حكم الطرف المنتصر. والرجوع إلى الكتابات المتأخرة المجهولة المصدر يُمكِّنُ من رؤية كيف فسَّر المنتصر للعموم تصرُّفات المغلوب. فمنهج هذا البحث إذن، استقاء المعلومات من المصادر المعاصرة التي يمكن للباحث تقييمها، لأنها معلومة معروفة؛ وكذلك لم يُشر البحث إلى المراجع والدراسات التاريخية المعاصرة لعدّة أسباب: أنه لابد من الاطلاع عليها للاستفادة من رؤى الباحثين وتحليلهم للأحداث، ولكن القراءة والتفسير في هذا البحث -كما يُشير عنوانه- مختلفة. واختلاف الباحثين في تفسير الأحداث وأدلة المصادر ثراء بحثي مطلوب، ولا يعني عدم الإشارة إليها في هذا البحث الغَضَّ من قيمتها العلمية أبدًا، بل هو كما ذكرت بسبب أنها لم تتطرق - فيما اطَّلعتُ عليه - للتفسير الذي وصل إليه هذا البحث، سواء بالإقرار أو بالنفي. ولأن معظم تلك البحوث كانت تمرُّ بالموضوع سريعًا دون توقف؛ إما لأنها تركز على موضوع آخر وتناولت موضوعنا هذا استطرادًا أو تمهيدًا، وإما لأنها كانت كتابات شاملة عن الدولة المملوكية، فلا تتناول دقائقها وتفاصيلها[3].

عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، 1425هـ/2004م، ص141، 179؛ موسى بن محمد اليونيني (ت 726هـ/1326م)، **ذيل مرآة الزمان**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1380هـ/1960م، ج1، ص55، 59.

[3] انظر مثلا: سعيد عبدالفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص21-22؛ أحمد مختار العبادي، **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، مؤسسة

3- مشكلة البحث:

تصوّر كتابات المؤرخين المتأخرين أن الغيرة وحدها كانت وراء مقتل الملك المعزّ أيبك، وتقول الرواية -التي أصبحت الرواية شبه الرسمية فيما بعد- أن المعزّ أيبك طلب من حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ[4] أن يزوّجه ابنته. فلمّا علمت شجر الدر بذلك غارت غَيْرة شديدة فدبّرت لقتل زوجها المعزّ، ونفذّت ذلك في يومٍ بعد أن عاد من لعب بالخيل، ودخل الحمّام فقتله خدمها[5]. ولكن يقابل قارئ التاريخ في هذا التفسير عدَّة مشكلات: منها أن تاريخ العلاقة بين شجر الدر والبحرية[6] من ناحية وبين أيبك من ناحية أخرى، لم تكن خالية من التنافس والتآمر بعضهم على بعض، والمصادر زاخرة بأمثلة من هذا التنافس[7]. وثانيها أن هذا التفسير ليس مناسبًا لشخصية شجر الدر كما تعكسها المصادر، والزواج بينهما كان في الكبر، ولم يكن منذ البداية إلا تحالفًا سياسيًا برضى الطرفين؛ إلا أن هذه الرواية تحوِّل العلاقة إلى غيرة بين حبيبين وهو ما يجعلها أكثر قابلية للذائقة الشعبية التي -في رأيي- صيغت من أجلها هذه الرواية.

ولنقدِّم تفسيرًا مغايرًا يجب أن نستنطق المصادر، ونقرأ ما بين سطورها إن لم تصرّح بجلاء، ولا بد من الرجوع قليلاً لنفهم تكوّن بدايات هذه العلاقات الشائكة بين الطرفين.

شخصيتا البحث الرئيستان هما:

شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.، ص131-132؛ وليم موير، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415هـ/1995م، ص43؛ محمد عبدالله عنان، **تراجم إسلامية شرقية وأندلسية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1390هـ/1970م، ص108.

[4] أبو الفضائل الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأرمني الأتابكي النوري (ت 657هـ/1259م). مولى نور الدين أرسلان شاه بن السلطان عز الدين مسعود. كان القائم بتدبير دولة أستاذه، ثم دبّر دولة ابنه القاهر، ثم أقام بعده ولديه القاصرين مُدَّة، ثم استبدّ بالحكم وتسلطن سنة 630هـ/1233م. راجع: محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ/1348م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ/2003م، ج14، ص 864؛ خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ/1363م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1381-1429هـ/1962-2008م، ج24، ص407.

[5] ابن واصل، **مفرج**، ص194؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص 45؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص774.

[6] حول تسميتهم بالبحرية، انظر: عاشور، **العصر المماليكي**، ص5.

[7] سيأتي ذكر بعضها.

1- الملك المعزّ عزّ الدين أيبك بن عبدالله التركماني الصالحي. اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب في حياة أبيه الملك الكامل، فخدمه منذ وجوده في الشرق، قبل سعيه للسلطنة على مصر. وكان جاشنكير[8] الملك الصالح[9]. فهو كما فلم يكن أميرًا كبيرًا ذا خطر، إلا أنه كان أقدم مماليك الصالح عندما اختير لتولي الأتابكية لشجر الدر كما سيأتي.

2- أم خليل السلطانة شجر الدر الصالحية: زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأم ولده خليل، الذي مات صغيرًا. كانت مع الصالح لما حُبس بالكَرَك سنة 637هـ/1240م[10]. ولما اشتدَّ المرض بالملك الصالح في المنصورة أدارت الحكم بالتعاون مع الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ[11] نائب السلطنة. وسيأتي ذكر البقية.

4- تحالف شجر الدر مع المماليك البحرية:

عندما توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب، سنة 647هـ/ 1249م، كانت زوجته أم خليل شجر الدر قد اتفقت مع نائب السلطنة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ على أن يدعوا كلاهما الملك المعظّم توران شاه بن الملك

---

[8] الجَاشَنْكِير: المسؤول عن السماط السلطاني، ويتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفًا من أن يدسّ فيه السم. واللفظ مركّب من لفظين فارسيين: (چاشْنا) ومعناه الذَّوق، و (كِير) ومعناه المتعاطي لذلك، فيصبح المعنى الذي يذُوق. راجع: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص21، ج5، ص460.

[9] اليونيني، **ذيل**، ج1، ص54؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص773؛ الصفدي، **الوافي**، ج9، ص469.

[10] يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م)، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، دمشق، 1434هـ/2013م، ج22، ص364؛ ابن واصل، **مفرج**، ص201؛ **اليونيني**، ذيل، ج1، ص61؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص777.

[11] الأمير فخر الدين يوسف بن محمد بن عمر ابن شيخ الشيوخ، أمير كبير ولي نيابة السلطنة للملك الصالح نجم الدين أيوب، واستشهد في مواجهة الصليبيين في المنصورة سنة 647هـ/1250م. انظر ترجمته في: ابن واصل، **مفرج**، ص111؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج22، ص410؛ اليونيني، **ذيل**، ج2، ص214؛ محمد بن شاكر الكتبي (ت 764هـ/1363م)، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج4، ص366؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص686.

الصالح ليتسلّم حكم أبيه[12]. فلمّا وصل السلطان الجديد كان فخر الدين قد استشهد، ولم يبق ممن كانت له سلطة مطلقة في مرض أبيه إلا شجر الدر، وتطوّرت الأمور بينهما حتى اتهمها بسرقة أموال، وتوّعدها[13]. فما كان منها إلا أن سعت جاهدة للتخلّص منه قبل انتهاء المعركة مع الصليبيين في المنصورة، وتفرّغه لها. وكان مَنْ استجابوا لتحريضها لأنهم كانوا يشعرون بالخطر مثلها من هذا السلطان الجديد هم المماليك البحرية، الفرقة الجديدة من المماليك التي أنشأها أبوه الملك الصالح[14]. وكان الملك المعظم توران شاه قد حيَّد جميع رجال أبيه بإبعادهم، واستعجاله ذلك قبل أن تستحكم له الأمور[15]. لذلك لم يُناصره أحد، وكان التخلّص منه أسهلَ بكثير مما توقع المتآمرون عليه، ونجد تفاصيل ذلك وشواهده واضحة في المصادر[16].

وبعد أن تمّ لشجر الدر وحزبها من البحرية ما أرادوه، وهم لا يزالون في خضمّ المعركة مع الصليبيين حول دمياط، وغيبة شخصيات قيادية مسيطرة مثل الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، هداهم تفكيرهم إلى أن يختاروا شجر الدر قائمة بالأمور، وتعيين أتابكَ لها من المماليك يباشر الحكم بأمرها[17]. وكانت إذ ذاك في القاهرة، ومن اختارها بالمنصورة[18]، وهذا يدلّ على أنها لم تكن طرفًا في اختيار أيبك، إنما اختاره قادة البحرية. فعرض أولئك القادة الأتابكيةَ أولاً على الأمير حسام الدين أبو علي[19]،

---

[12] ابن واصل، **مفرج**، 100، 101؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص ص 363-364، ص 577؛ أحمد بن علي المقريزي (ت 845هـ/1441م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، مصر، 1376-1403هـ/1956-1983م، ج1، ق2، ص 339، ص 343.

[13] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج22، ص417؛ المقريزي، **السلوك**، ج1 ق2، ص358.

[14] المصدران السابقان.

[15] ابن واصل، **مفرج**، ص118-119، 127-128.

[16] انظر مثلاً: ابن واصل، **مفرج**، ص128؛ أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 665هـ/1267م)، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)**، تصحيح: محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت، 1974م، ص 185؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص597.

[17] ابن واصل، **مفرج**، ص132؛ أبو شامة، **تراجم**، ص185؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص 369 (رواية عن سعد الدين ابن حموية، ت 674هـ/1276م)؛ المقريزي، **السلوك**، ج1، ق2، ص361.

[18] ابن واصل، **مفرج**، ص 132؛ المقريزي، **السلوك**، ج1، ق2، ص 362.

[19] الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني الكردي (ت 658هـ/1259م)، استدار الملك الصالح نجم الدين أيوب ومحل ثقته، اتصل بخدمته سنة 626هـ/1228م، حضر إلى الشام خلال سعي الصالح إلى السلطنة، وقبض عليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل مدّة، ثم لحق بالصالح أيوب

فامتنع. ثم عرضوها على الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير الصالحي النجمي، فامتنع. فعرضوها على الأمير خاص تُرك الكبير، فامتنع. ثم عُرضت على عز الدين أيبك التركماني الصالح، فقبل[20]. إذن، كان أيبك هو الخيار الرابع لهؤلاء المماليك البحرية، واختير دون مشورة شجر الدر؛ فلا بد أن نستحضر هذا ونحن نستعرض العلاقات بين الطرفين.

وتُفسِّر المصادر سبب اختيار البحرية لأيبك بصلاحه وسكونه[21]. ولم يكن أيبك من كبار الأمراء، فلم يخشَ البحرية أن يطمع في الاستقلال بالسلطان.

5- الصراع بين المماليك البحرية والملك المعزّ أيبك:

بعدما قُتل آخر سلاطين الأيوبيين الذين حكموا فعليًا في مصر، كان هناك ما يُشير إلى تخبُّط الرؤى بين قادة المماليك؛ فبعضهم يرى اقتباس الأنموذج العباسي تحت حكم قادة الجيش الأتراك[22]، وبعضهم الآخر يرى الفرصة سانحة للاستقلال بالحكم وابتداء سلطنة جديدة للمماليك[23]. وقد تنبّه ابن واصل (ت 697هـ/1298م) لهذا التحزُّب[24]. وكان من يمثّل الاتجاه الأول المماليك البحرية الذين اغتالوا الملك المعظم توران شاه ومعهم شجر الدر، ونصّبوا أيبك أتابكَ؛ ويمثّل الاتجاه الثاني أيبك ومعه المماليك العزيزية. ونرى ذلك بوضوح من خلال الإجراءات التي اتخذها

بعدما أُفرج عنه. انظر: ابن واصل، **مفرج**، ص98، 106، 125؛ اليونيني، **ذيل**، ج2، ص77؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص 907.

[20] ابن واصل، **مفرج**، ص132.

[21] اليونيني، **ذيل**، ج1، ص55؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص 773؛ بيبرس المنصوري الدوادار (ت 725هـ/1325م)، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1419هـ/1998م، ص 3؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج9، ص 469.

[22] للمزيد عن هذه الفترة من عصر الدولة العباسية انظر: عبدالعزيز بن محمد الليلم، **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من 221-279هـ**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ/1997م؛ فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية: السقوط والانهيار**، دار الشروق، عمّان، 2009م.

[23] ناقشت هذا بالتفصيل في بحث سابق بعنوان: نشأة دولة المماليك: قراءة جديدة.

[24] ابن واصل، **مفرج**، ص 177.

أيبك، مثل: إعلان نفسه نائبًا عن الخليفة[25]، واستغلاله غياب قادة البحرية وإعلانه نفسه سلطانًا[26] ثم نقض البحرية لذلك ومطالبتهم بسلطان أيوبي صغير يسهل الحكم باسمه[27]، وملاحقة للبحرية كلما سنحت الفرصة لسجنهم أو التخلص منهم، وهدم معسكراتهم في جزيرة الروضة[28]، وغير ذلك من الإجراءات.

ولما تخلَّص أيبك من قادة المماليك البحرية، بقتله أقطاي -المنافس الرئيس- وهرب بعضهم الذين شاركوا في اغتيال الملك المعظم توران شاه إلى الشام، وقبضه على من بقي منهم فسجنه أو قتله[29]، عزل السلطان الأيوبي الذي فرضوه عليه -كما ذُكر أعلاه- وأعلن نفسه سلطانًا[30]، وأرسل إلى الخليفة العباسي يطلب إليه الاعتراف به سلطانًا على مصر[31]. وقد كان هناك توافق في المصالح بين أيبك والمماليك العزيزية، وهو القضاء على البحرية وخطرهم، فلما زال هذا الخطر أصبح التخلص من أيبك هدفًا للعزيزية، حلفائه بالأمس، فهم يريدون السلطة كاملة لسيدهم[32] صلاح الدين بن العزيز[33]. وما انتهوا من البحرية حتى حاولوا اغتيال أيبك. وهنا يتنبه ابن واصل إلى أن المعزّ شعر بخطر حلفائه الجدد، فحاول تقريب المتعاطف من الصالحية مع البحرية، فتزوّج شجر الدر[34]، محاولاً

---

[25] ابن واصل، **مفرج**، ص 142؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص773.

[26] ابن واصل، **مفرج**، ص 140؛ عبدالله بن عبدالظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، د.ن.، الرياض، 1396هـ/1976م، ص 51-52.

[27] ابن واصل، **مفرج**، ص141-142؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص773.

[28] ابن واصل، **مفرج**، ص 179؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص59؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص373، 657.

[29] ابن واصل، **مفرج**، ص178-179؛ أبو شامة، **تراجم**، ص188؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص 58-59؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص 656-657.

[30] ابن واصل، **مفرج**، ص 179؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص 657.

[31] الدوادار، **زبدة الفكرة**، ص20.

[32] ابن واصل، **مفرج**، ص 181؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص59.

[33] الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، صاحب دمشق وحلب (634-658 هـ /1237-1260م). خرج من دمشق لما قرب منها جيش هولاكو، ثم قُبض عليه في الكَرَك وأُرسل إلى هولاكو وهو في طريقه راجعًا إلى بلاده. فلما بلغه هزيمة جيشه في عين جالوت، أمر بقتل الناصر سنة 658 هـ /1260م. للمزيد راجع: اليونيني، **ذيل**، ج1، ص461 فما بعدها؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج4، ص361.

حسم الصراع مع من بقي من الصالحية المتعاطفين مع مشروع البحرية السياسي آنف الذكر.

ونجد إشارة عند المقريزي (ت 845هـ/1441م) دون ذكر المصدر، إلى أن شجر الدر اتصلت بالملك الناصر ابن العزيز تعرض عليه التعاون في أن تقتل أيبك وتملّكه مصر على أن يتزوّج بها[35]. ولا نستطيع بناء حكم على هذه الرواية دون معرفة مصدرها، إلا أنها تتّسق مع سياق الأحداث، فشجر الدر تعلم أن أيبك تحالف معها مضطرًا بعد شعوره بالتهديد، وقد رأت كيف هادن خصومه فيما قبل ثم تخلّص منهم. وهناك إشارة عند المقريزي ودون ذكر المصدر أيضًا، إلى علم أيبك بمراسلة شجر الدر للملك الناصر عن طريق بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[36]. ويبدو من هذا التواصل بين أيبك ولؤلؤ بوادر تحالف جديد كان أيبك في حاجة ماسة إليه بعد انتقاض جميع تحالفاته السابقة، وهنا نأتي إلى السبب الذي تركّز عليه المصادر في معظمها بأنه سبب مباشر لمقتل أيبك، ألا وهو عزمه على الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ، حليفه الجديد -لتوكيد الحلف-، وغيرة شجر الدر، ومن ثَمّ تخطيطها وتنفيذها لاغتياله. فقد حاول المؤرخون تفسير ردّة الفعل هذه فقالوا إنها كانت تركية شديدة النفس وشديدة الغيرة[37]. وفي رأيي أن هذا تبسيط للأمر، وبالنظر إلى ملابسات الاختلاف يتضح للباحث دواعٍ أخرى لاغتيال أيبك.

نجد في تفسير اليونيني (ت 726هـ/1326م) لمقتل أيبك تفسيرًا مبنيًّا على فهم أحداث الفترة التاريخية، قال: "... فلما بلغها أن الملك المعز يريد أن يتزوج بنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وقد عمل على ذلك وتخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها لأنه سأم من تحجيرها عليه واستطالتها فعاجلته وقتلته"[38]. ويوافقه تفسير أورده ابن العبري (ت 685هـ/1286م): "فأرسلت عبيدها الصغار فقتلوه لأنها سبقت

---

[34] ابن واصل، **مفرج**، ص181-182.
[35] **السلوك**، ج1 ق2، ص 402.
[36] السابق، ص 402-403.
[37] ابن واصل، **مفرج**، ص 194؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص45؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص774، 777؛ الدوادار، **زبدة الفكرة**، ص24؛ إبراهيم بن محمد ابن دقماق، **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، تحقيق: محمد كمال الدين علي، عالم الكتب، بيروت، 1405هـ/1985م، ج2، ص55.
[38] اليونيني، **ذيل**، ج1، ص61-62.

فعرفت أنه يريد إهلاكها"[39]. ويبدو أنها شعرت بأن السلطان قد استتبَّ لأيبك، خاصة بعد تخلّصه من أقطاي والبحرية. ورأت كيف هادن خصومه من قبل وحالفهم ثم فتك بهم واستبدل بهم حلفاء آخرين. كل هذا كانت شجر الدر شاهدة عليه وطرفًا فيه، ولذلك فإن تدبيرها لقتل أيبك ينبغي أن يُنظر إليه -في رأيي- من هذه الزاوية، فهو امتداد للصراع بين جناحي الدولة المملوكية الجديدة: أيبك من جهة، والبحرية وشجر الدر من جهة أخرى. وهذا الصراع تتضّح بعض معالمه أيضًا بعد مقتل أيبك، فقد وقف من تعاطف مع البحرية من الصالحية -التي كانت شجر الدر منهم- ضد حزب أيبك لما أرادوا أن يولّوا نور الدين علي بن أيبك خلفًا لأبيه. ولم يتمّ لهم ذلك إلا بعد أن طمأنوا الصالحية وعيّنوا أحدهم مؤقتًا أتابكَ لنور الدين. ومع هذا كانت الصالحية تحاول تسلُّم السلطة. وبعد أن استقرّت البيعة لنور الدين بدأ التخلّص من الصالحية تدريجيًا[40].

فلما عقدت شجر الدر العزم على قتل المعز أيبك، بعثت إلى صفيّ الدين ابن مرزوق[41] أولاً، وعرضت عليه ما عزمت عليه ووعدته بالوزارة، لكنه رفض وحذّرها من الإقدام على هذا الأمر. فبعثت إلى مملوك للطواشي محسن الجَوْجَري الصالحي، وبعض الخدّام الصالحية وأبلغتهم خطتها[42]. ثم لما وصل الملك المعز أيبك وحده ليستحمَّ، أجهز هؤلاء المماليك عليه، فأرسلت مرّة أخرى لصفي الدين لعله كان يرفض أولاً خوفًا من المعز، فلما رآها والمعزّ ميتًا بين يديها، أعاد رفضه عرضها مرّة أخرى وقال: "ما أعرف ما أقول، وقد وقعتِ في أمرٍ عظيمٍ مالكِ مخلص منه"[43]. ثم تدارك مماليك الملك المعزّ بقيادة مملوكه قطز، الذي

---

[39] غريغوريوس الملطي ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ترجمة: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1986م، ص295.

[40] ابن واصل، **مفرج**، 196-200؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص47، 49.

[41] الصاحب صفي الدين إبراهيم بن عبدالله بن هبة الله بن مرزوق العسقلاني (ت 659هـ/1261م). تاجر كاتب له علم ودين. كان وزيرًا للملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبي. ثم لمّا عُيّنَ الملك الجواد نائبًا للملك الصالح إسماعيل بالشام قبض على صفي الدين وصادره وسلّمه إلى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص. ثم تخلّص من حبسه وهاجر إلى مصر ومكث بها مشيرًا. راجع: اليونيني، **ذيل**، ج2، ص126؛ الصفدي، **الوافي**، ج6، ص39.

[42] ابن واصل، **مفرج**، ص194؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص45.

[43] نفسه.

أصبح الملك المظفر فيما بعد، وعيّنوا ابنه نور الدين علي سلطانًا، وقتلوا كل من شارك في قتل المعزّ، بمن فيهم شجر الدر[44].

فهذا إذن جزء من الصراع الذي ابتدأ بين المماليك في مخاض طويل لولادة دولتهم الجديدة بعد مقتل الملك المعظّم توران شاه، ولم ينتهِ إلا بمقتل الملك المظفر قطز (657- 658هـ/ 1259- 1260م)، وتولي البحرية مرّة أخرى ممثلين بالملك الظاهر بيبرس (658- 676هـ/ 1260- 1277م)، الذي استغنى عن السلطنة الأيوبية باستضافته الخلافة العباسية في مصر، وأصبح ومن بعده يحكمون باسمها.

6- الخاتمة:

كانت العلاقة بين الملك المعزّ أيبك من جهة، وشجر الدر ومعها المماليك البحرية من جهة أخرى علاقة معقّدة، نتج عنها في إحدى حلقاتها مقتل الملك المعز أيبك بتدبير شجر الدر وأمرها. إلا أنها صُوِّرت في معظم المصادر والمراجع أنها كانت بسبب غيرة امرأة يريد زوجها أن يتزوّج بأخرى عليها. وهذا تقزيم للأمر ووصفه بغير صفته، فلم يكن زواج شجر الدر من أيبك أصلاً إلا مهادنة بين جناحي الصراع، ومحاولة فاشلة في تقاسم السلطة بين الأطراف.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر:

(44) ابن واصل، **مفرج**، ص201؛ اليونيني، **ذيل**، ج1، ص61-62؛ الذهبي، **تاريخ**، ج14، ص777.

- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد، **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، تحقيق: محمد كمال الدين علي، عالم الكتب، بيروت، 1405هـ/1985م.
- الدوادار، بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1419هـ/1998م.
- الذهبي، محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ/2003م.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، دمشق، 1434هـ/2013م.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)**، تصحيح: محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت، 1974م.
- الصفدي، خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1381-1429هـ/1962-2008م.
- ابن عبدالظاهر، عبدالله بن عبدالظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، د.ن.، الرياض، 1396هـ/1976م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي، **تاريخ الزمان**، ترجمة: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1986م.
- القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د.ت.
- الكتبي، محمد بن شاكر، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- المقريزي، أحمد بن علي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، مصر، 1376-1403هـ/1956-1983م.

- ابن واصل، محمد بن سالم، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، 1425هـ/2004م.
- اليونيني، موسى بن محمد، **ذيل مرآة الزمان**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1380هـ/1960م.

ب- المراجع:

- عاشور، سعيد عبدالفتاح، **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.
- العبادي، أحمد مختار العبادي، **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.
- عنان، محمد عبدالله، **تراجم إسلامية شرقية وأندلسية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1390هـ/1970م.
- فوزي، فاروق عمر، **الخلافة العباسية: السقوط والانهيار**، دار الشروق، عمّان، 2009م.
- اللميلم، عبدالعزيز بن محمد، **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من 221-279هـ**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ/1997م.
- موير، وليام، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415هـ/1995م.